

الخيانة واحدة من القيم النبيلة

أساطير الخيانات وحكاياتها ما قبل بروتس وبعده

التأثير فيهم العدد وكسر الخواطر
والمشاعر، إلى قتل البشر ودمار البلاد
والاقتصاد، واحتلال الوطن واستعباد
الشعب.

رغم اتفاق الجميع على أن الخيانة فعل شديد القذارة والخسة، وأن صاحبها كائن فاقد لإنسانيته، فإن تجسيدها في الحياة، وممارستها بالفعل، جار على قدم وساق، طالما في جراب الخائن أكثر من قناع، وأجساد الفاعلين تخترن روائح الخيانة ولا تطلقها، كما حدث لزوج السيدة الهندية الخائن.

ولرائحة الخيانة قصة طريفة قد لا تنسى الكثيرين، وهي أن سيدة هندية تدعى شانكتا بالاول كانت تشك في خيانات زوجها لها، فاهنت بعد تجارب كثيرة إلى دواء عجيب أسمته "كا - فاشتو" (ka-fashto) لاحظوا تطابق هذه التسمية الهندية، طبعاً مصادفة، مع الكلمة الشعبية الشامية "أفشتو" والتي تعني القبض على الجاني متلبساً. غير أن "مفتاح الحقيقة"، وهذا هو معنى

تسمية "كا - فاشتو" بالعربية، هو عبارة عن زيوت مستخلصة من عشبة عطرية، يقتصر مفعولها على الخيانة الزوجية، وعلى الخونة من الرجال خاصة، إذ تكفي قطرة واحدة من هذه العشبة، مزوجة في شراب ما، قهوة أو شاي مثلاً، وتتاولها الرجل المتهم، حتى تنطلق منه رائحة أشبه بالخمر، وتستمر لمدة يومين، ثم تفسير ذلك على أنه نتيجة انخفاض مفاجيء في مستوى الحيوانات المنوية لدى الخائن.

يذكر لنا التاريخ خيانات كثيرة وقعت في غير زمان ومكان، ومن قبل أناس من شتى الطبقات، العليا منها والدنيا، كما تروي حكايا الشعوب وملامحها وأساطيرها قصصاً كثيرة عنها، تثير الاستهجان لدينا، وتجعلنا ندين الفاعلين لها، غافلين عن حقيقة ناصعة، وهذه مفارقة، أن الخيانة ليست عادة قديمة أكل عليها الزمن وشرب، بل فعل لا يني يتكرر منذ أقدم العصور، ويمارس أمامنا وتحت أنوفنا، بتسميات وأقنعة كثيرة، فنصمت عنها ونحن غافلون عن الوجه الحقيقي المتواري خلف القناع، وذلك عن جهل، أو نفاق، وبيض النفاق خيانة. يطول الحديث عن ذكر مالبسات هذا التعاليف عن الخيانة، أو القبض على

أحمد إسماعيل
كاتب سوري

لكلمة الخيانة وقبحها الثقيل على النفس، كما في الأذان، ولصورة صاحبها في الأذهان هيئة وصورة ما للشيطان في الموروث الشعبي والذاكرة الجماعية لدى غالبية الشعوب من قبح ودمامة يثيران النفور الشديد لدى الناظر إليها، إلى درجة تفوق صورة القاتل والزاني شدة في القبح. قد يستغرب البعض القول إن الخيانة لا تنتمي إلى عائلة الصفات والمفاهيم الشريفة، وليست صفة مستقلة عن غيرها، بل، وهنا تكمن المفارقة، ولب المشكلة، إنها تنبثق من أسرة القيم النبيلة: الحب والصداقة والوطنية والوفاء، وهي أشبه ما تكون بالعقرب الذي يظهر فجأة للبسطاء والمغلغلين، فيثير فيهم الدهشة والرعب، أو أشبه بالجرثومة التي تنخر في الخفاء أصل الشجرة؛ جرثومة تتضخم فجأة نتيجة خلل ما كامن في الأصل؛ وتعصف بالشجرة؛ شجرة الحب الخضراء، أو الصداقة والوطنية، بضربة قاصمة، وبما يشبه الضرر الذي تحدثه الاضطرابات الناشئة في أجهزة التنفس مثلاً، أو الدم، أو الاضطرابات العاصفة في النفس، من اكتئاب وهستيريا ووسواس قهري وغيرها.



مفهوم الخيانة قد يختلف

من زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان، حسب الظروف ومستوى الوعي وسلّم القيم

والخيانة خيانات: خيانة عاطفية بين حبيبين، وأخرى زوجية، ونائلة بين الأصدقاء، ورابعة عسكرية وسياسية ووطنية، وكلها موجعة ومؤذية، بل وخطيرة، بيد أن الخيانة العسكرية والوطنية هي الأشدّ ضرراً بين تلك الأنواع، لأن الضحايا فيها كثر، يتعدى



الخائن ليس شخصاً سيئاً دائماً (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

ومن هنا يمكن أن نعد بعض الخيانات جهلاً بالفعل الذي أقدم عليه صاحبه، وبعضها الآخر طمعا في مال أو مكانة، وبعضها فقد وكيد. وبعضها لهدف نبيل كما يزعم أصحابها: بروتوس الروماني، وهاريك الميدي. ونضيف إلى ما سبق دوافع أخرى، ومنها الأمراض النفسية الخفية أو الظاهرة، لا الوراثية كما يحلو للبعض تسميتها، والتي تدفع بصاحبها إلى ارتكاب هذا الفعل، كالشخصية الهستيرية مثلاً، التي تتسم بسطحية الانفعالات أو التمحور حول الذات وحب الاستعراض.

يؤكد فرويد في هذا الخصوص على أن هذا النوع لا يستطيع مقاومة الغريبات، يعكس الشخصية السوية. كما يؤكد تلميذه أدلر على أن للشعور بالنقص دوره في دفع صاحبه إلى ارتكاب هذه الجناية، فهو، الخائن، إن لم يستطع أن يعرض النقص لديه بما هو مرض له، وتحت تأثير مقارنة النفس بالآخرين، والعجز عن الوصول إليهم، لجأ إلى خيارات تضمن له التفوق عليهم، دون التفكير في العواقب، ولا بأس عنده من أن تكون الخيانة واحدة من هذه الخيارات والوسائل.

ناهيك عن خيانات أخرى تكاثرت في ظل هذه الخيانة الكبرى، والتي جعلت الخيانة تزدهر وتتحوّل إلى غواية يمارسها الجميع، ويلعنها الجميع. قد يختلف مفهوم الخيانة من زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان، حسب الظروف ومستوى الوعي، وسلّم القيم ودرجة تطور المجتمع. ففي ظرف اقتصادي خانق عدّ تزيف النقود في بريطانيا خيانة عظيمة، وفي ظرف ومكان آخرين، يتم اعتبار معارضة السلطة خيانة.

وفي جعبة الشعوب والتاريخ أمثلة لا حصر لها من خيانات صغيرة وكبيرة، حقيقية ومزيفة. وكلها تحتاج إلى مراجعة وتشريح وتفصيل للكف عن إطلاقها بشكل مجاني على أفعال قد لا تكون سوى خيانة من منظور طرف؛ أحكامه غير سوية، لسبب ما غير موضوعي، أو قد تكون رد فعل مدمر على فعل ظالم. قد تكون الخيانة لأسباب أخرى كثيرة، خفية وظاهرة، جعلنا نسارع إلى الإدانة والرفض، ولا يستثنى الخائن نفسه من استنكار الخيانة، رافضاً أن يكون فعله خيانة.

قائد جيوش مملكة ميديا، والتي كانت قائمة قديماً في الشمال الغربي من إيران الحالية، باقتراف فعل الخيانة، وتحت مظلة نبيلة، وذلك حين تحالف مع عدو مملكته الملك كورش بهدف إسقاط ملكه المستبد أستيباك، فكانت النتيجة أن سقطت المملكة مرة واحدة وأخيرة، وذلك سنة 553 قبل الميلاد.

وبالمثل، وبعدهما برز تعاون الجنرال الفرنسي فيليب لافال مع النازيين بحجة مكافحة الشيوعية في بلده، رافضاً بشدة تهمة الخيانة أثناء محاكمته سنة 1945 واصفاً ما قام به بالعمل الوطني النبيل. وثمة نوع آخر ملتبس من الممارسات السياسية المنحرفة يضاف إلى هذه الخيانات، التي تتمثل في لجوء "الرفاق المتنافسة، إلى قوى معادية للوطن أو طامعة فيه، من أجل مساعدتها على التفرّد بالسلطة، أو من أجل القضاء على تفرّد الآخر القوي بالسلطة، وهو نوع يجد دائماً من يمنحه صكوك البراءة والشطارة، ولقد قدمت التجربة السورية في العقد الأخير من الزمن نموذجاً واضحاً وفاضحاً عليه، ومن الطرفين: موالة ومعارضة.

أصحابها في وضع المتلبس. فشرح ذلك ملتبس ومتعدد المشارب، وخاصة ما يتعلق منها بالخيانات التي ترتكب باسم الوفاء لنفسه، والحب، والإخلاص. ومن أمثال هؤلاء كثر، في الماضي كما في الحاضر، ومعرفتنا بحقيقتهم اليوم ليست سوى نتيجة سقوط الأتقنة، أو إسقاطها، بفعل الزمن وكسر التماهي مع خداعهم. وكذلك بفضل نباهة البعض ممن مرّق أقنعتها بالقلم، ويحضرن اسم بروتوس كواحد من أكثر هؤلاء شهرة بصفته، الخائن النبيل، والذي ردّ على صديقه المغدور به يوليوس قيصر، الذي ساهم في الإجهاد عليه، بعد جملة الشهيرة "حتى أنت يا بروتوس!". بالقول "أنا احبك، ولكنني أحب روما أكثر".

ثم تبعها بخبطة للناس قدم فيها نفسه على أنه الأكثر حبا لقيصر "من منكم يكره أن يكون رومانياً، من منكم يكره أن يكون حراً، من منكم يحقر نفسه، من منكم يزدرى مصلحة وطنه؛ إذا كان واحد من هؤلاء فيكم، ليعترض، لأنه هو الذي يحق له أن يثار لنفسه مني، لأنني لم أسئ لأحد سواه". ولقد سبق بروتوس، وبرز من بعده، قائد آخر في الشرق، هو القائد هاريك،

انتهاك الأسرار أنجب عالماً هشاً وهزلياً

لقتها وسيطرتها، ولاسيما حين يدخل الإنسان في عقد المقارنة المباشرة بين قوة المؤسسة الرسمية التي تمنحها بالقوة والسلطة والسيطرة، وبين قدرات الإنسان المحدودة للحفاظ على أسرار الشخصية. وكيف يتم انتهاك كل هذه القوة على يد موقع إلكتروني لا يعرفه أحد، أمن بفكرة الشفافية، وعمل على التعاطي مع العالم وفق الرؤية التي يراها ويعتقد بها. إنه السرد المختلف الذي يتعامل مع العالم بناءً على أنواع مختلفة من التفاعل السري.

إنها أحوال التداوي لطريقة التفكير بمستوى العلاقات حول سرد الذات وسرد الآخر وسرد العالم، وإمعان التفكير بالطريقة التي يتم فيها التعاطي مع هذا العالم الذي ما انفك يعرض أحوال التحول. إنه الحضور للمجمل من التفاعلات الاجتماعية، ومدى تأثيرها في طريقة التفاعل السري حيث المعطيات التي تجسدها طريقة الفعل الصادر عن المبادرة البشرية الفردية، بعد أن كان الفعل محصوراً في التأثير الكبير والهائل الذي تقوم به المؤسسة.

أثبتت هذه الأحوال أن العالم لا يمكن أن يتحوّل إلى بناء على السائد من الأفكار، بقدر ما يقوم على التفاعل السري، الذي يمكن أن يحمل المزيد من أحوال إعادة إنتاج المعاني.

ينشر كاملاً على الموقع الإلكتروني
بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

الصدمة العنيفة التي تعرض لها الناس، وهم يتعرضون لهذا الكم من الوثائق التي تكشف عن الأسرار، والتفاصيل المتعلقة بطريقة التعاطي مع الأحداث، عمل على قلب المعادلة السردية، وطريق التلقي لدى عامة الناس، الذين باتوا يعيشون أحوال التناقض والتداعي والشك حول جدوى العالم، بل راح الإنسان يفكر في طريقة التعاطي مع التجارب الشخصية، وكيف يمكن له الوثوق بهذا العالم الذي تحركه الأسرار.

**السردية الرقمية غيرت العالم
من خلال القضاء على ثنائية
المكتشوف والمخفي ورسم معالم
العالم الجديد المستند إلى
الشفافية**

إن الأمر هنا لا يتعلق بطريقة التلقي المباشر، لكن التفاعل السري يكشف عن مستوى الانفعال الإنساني وتأثيره على السرد بصورة عامة، حيث التفكير في المهم والأقل أهمية، وكيف يمكن طرح الأسئلة حول هذا العالم الذي غدا هشاً وضعيفاً وهزلياً، بعد أن تم هتك الأسرار، إنها الفضيحة التي تلاحق كل شيء، وأي شيء في ظل سطوة وسيطرة السبرانية التي لا حدود

التفاعلات المجازية في الخطاب الرقمي، والعمل على رصد الدلالات التي يزخر بها الحدث الذي تم فيه عمل الفضح، والكشف للمجمل من العمليات التي نالت الحظوة والقيمة والمكانة التقليدية، حتى جاء ويكيليكس لجعلها في أشد حالات الوهن والضعف والإجراج. هنا لا يمكن ترصده عبر مسار واحد، بقدر ما يقوم على المسارات المتعددة، فهم يتعلّق بالمزيد من كمية الدلالات والمعاني.

تفاعل لا يلبث أن يظهر على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والأمني طبعاً، ويعمل بكل وضوح على اختراق المنظومة الراسخة من الوفاق، والسمة القديمة للمؤسسات العريقة، من خلال الكشف عن الأساليب التي تعتمد عليها وتمارسها في الخفاء.

إنها باختصار سرد فضائحي لمجمل الأسرار التي بقي الفضول الإنساني يسعى جاهداً إلى التعرف عليها، فيما جاءت لحظة ويكيليكس ليجري فيها رفع النقاب عن الخفاء. وهكذا يكون التفاعل السري بمثابة الوسيلة التي يتم من خلالها الوقوف على جعل الواقع مختلفاً، وكيف تكون التفاصيل تحمل ملامح أخرى، ولاسيما بعد أن تجري إزاحة السردية الكبرى عن السطوة والحضور المركزي. إنها الفسحة التي يتم فيها منحها إلى العقل من أجل جذب الأنفاس، ومن ثم القدرة على التحديد والتمييز.

القضاء على ثنائية المكتشوف والمخفي، والسعي حثيثاً نحو رسم معالم العالم الجديد المستند إلى الشفافية. لم يعد العالم يعيش على توزيعات الحقب والمراحل التاريخية التقليدية، بل إن التطلع نحو فهم العالم صار يتم من خلال التركيز على دراسة الوضعيات. إنه السرد الرقمي وأحوال السيطرة والتوجيه والتفاعلات السردية التي تعمل على إنتاج المعنى الذي ينتجه العصر الذي نعيش فيه. السرد الذي يقوم على أهمية تمييز



إشباع الفضول. هذا التفاعل السري يترك فيه الفعل والمضمون والموضوع، مثلت سردية ويكيليكس صدمة عنيفة على مستوى العالم، حيث استطاعت أن تغير المعنى والعلاقات، ولاسيما حين استطاعت القضاء على نرجسية الوثيقة، والعمل على إسقاط المكانة التي كانت تتمتع بها. إنه التسلل في صميم الخصوصية حتى غدا المهم في أشد أحوال البساطة.

إنها أحوال السردية الرقمية التي عملت على تغيير العالم من خلال

إسماعيل نوري الربيعي
كاتب عراقي

يحضر التفاعل السري (narrative interactions) في صلب ممارسة الحياة، في داخله يتنازع المزيد من العمليات المعقدة والمرعبة، حيث يحاول مرة اللجوء إلى التخفي والسرية والكنعان، بما يضمن له حماية المصالح والأهداف. وفي محاولة أخرى يتوجه نحو الكشف والعلن والصراحة، من أجل

ويكيليكس قضى على نرجسية الوثيقة